

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميله

معهد الآداب واللغات - قسم اللغة والأدب العربي

عنوان الدرس

الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية - الجزء 1 - د. عبد الحميد بوفاس

التخصص : لسانيات عربية + لسانيات تطبيقية

المستوى : سنة أولى ماستر

معهد الآداب واللغات - قسم اللغة والأدب العربي

مقدمة:

من المصطلحات الرائجة في علم اللغة الاجتماعي واللسانيات الاجتماعية : الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية ، وهما نتاج رؤية جديدة قديمة للبحث اللغوي ، إضافة إلى أنّ المجتمعات تعيش أحد مظهرين إما الازدواجية اللغوية أو الثنائية اللغوية . وكثيرا ما تطرح قضايا الازدواج والتعدد اللغوي في المجتمعات مشاكل جوهرية ذات صلة وثيقة بالهوية والحضارة والثقافة أو بالأحرى تقدّم الشعوب ورفيها ، لأن السيادة اللغوية من سيادة الأمة .

غير أننا نلاحظ تداخلا كبيرا في ضبط مفهومي الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية بين علماء اللغة وعلماء الاجتماع أو الأنثروبولوجيا ، مما نجم عنه تكريس فكرة الصراع الخفي - صراع أيديولوجي - ضمن المباحث اللغوية .

وعلى هذا الأساس وجب النظر إلى مسألة الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية بحذر شديد ، ذلك أنّ قضايا التعدد اللغوي بصفة عامة في اللغة العربية لم تكن شبيهة بما هو موجود في باقي اللغات كالاتينية مثلا ، مما يجعل الازدواجية اللغوية في اللغة العربية مثلا ازدواجية احتواء لا إقصاء .

وهذا ما يجعلنا نعيد النظر في تحديد مفهومي الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية ، مع تحديد المعايير التي تسمح لنا بأن نقول إنّ مجتمعا ما ازدواجي أو ثنائي اللغة ، وهل يبقى تحديد مفهوم المصطلحين رهين خصوصيات الجماعة التي تتكلم بلغة معينة أم أنّ هناك معايير وضوابط إن لم تتوفر يسقط تصور الازدواج أو التعدد اللغوي .

تمهيد :

يعدّ اللسان العربي من أهمّ الألسنة التي نالت حظا وافرا من الدراسة والتحليل ، وإن دلّ ذلك فإنما يدل على غنى ذلك اللسان ودوره الحضاري والثقافي عبر العصور .

كما أنّ كثيرا من الحقائق التي توصّلت إليها اللسانيات الحديثة لا تبتعد كثيرا عمّا أقرّه اللغويون العرب القدماء ، مما يجعل لمناهج القدماء أهمية لا تنكر في دراسة اللسان العربي وإن اختلفت آليات المعالجة .

إلا أنّ هذا الأمر لا ينبغي أن يجعل اللسان العربي في منأى عن الاستفادة من مختلف العلوم الحديثة ، خاصة اللسانيات ، وعلم الاجتماع اللغوي ، وعلم النفس اللغوي ، وعلم الأنتروبولوجيا اللغوية ، ممّا يمكّن من دراسة أعمق لخصوصيات اللسان العربي ويكشف أكثر عن وظائفه ، ويفهم كيف تتشكّل الهويات الاجتماعية والإيديولوجيات والمعتقدات .

بل أعمق ممّا سبق ذكره ، فإنّ اللسان مظهر من مظاهر التطور والتقدم ، أو دليل على الانحطاط والتقهقر . ولعلّه يكون سبيلا إلى السيطرة والهيمنة التي تصل حدّ الاستعمار ؛ فهو استعمار لساني ثقافي يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف والتفرقة وإهناك القوى ، ومن ثمّ سهولة التبعية والتمسك بجلباب الأمم المتحضّرة ، وما على المغلوب إلا أن يتبع الغالب في مظهره ولباسه ومشربه ومأكله وعاداته وتقاليده .

ومن هنا أتت ضرورة البحث الموضوعي في مشاكل اللسان العربي باعتباره يمثّل حقيقة وجودنا ، ولا يمكن لهذا الوجود أن يكون فاعلا وقادرا على التفاعل مع الواقع المعيش وفهم معطيات العصر الجديدة والصمود في تيارات العولمة ، إلا من خلال إبراز عناصر القوة في ذلك اللسان وإيجاد حلّ علمي موضوعي لمختلف إشكالاته المطروحة ، خاصة في ظلّ سيطرة ثقافة الهزامية في المجتمعات العربية .

ولعلّ من أهمّ القضايا التي ينبغي على اللسانيين واللغويين والمختصين دراستها بدقة وعمق كبيرين " الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية " ، أولا : بالضبط الدقيق للمصطلح في ظل تعدّد المفاهيم . ثانيا : فهم حقيقة الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية ، بمعنى آخر : هل هذه الظاهرة تماثل ما هو موجود في اللسان الأجنبي أم تخالفها؟ . ثالثا : البحث في السياسة اللغوية المنتهجة في دراسة تلك الظاهرة ، وفق مناهج لا تهمل خصوصية المجتمعات الناطقة بتلك اللغة . رابعا : تقدير نتائج تلك المناهج والآليات على مدى بعيد ، قصد النظر في الضرر والفائدة المحققين ، من خلال معالجة تلك الظاهرة ، بمعنى آخر : النظر في تأثير كلّ من الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية في التعليم والتعلّم واكتساب المعارف خاصة لدى الأطفال ، وأيضا التأثير في بنية المجتمع ، في ظل تفاعلها مع المعطيات السياسية والاقتصادية والثقافية والتاريخية .

أولا : تعريف ازدواجية اللغوية

ينبغي أن نشير منذ البداية إلى صعوبة الفصل بين مصطلحي الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية ، ويمكن أن نحمل بعض أسباب ذلك فيما يأتي :

1- اختلاف الباحثين العرب أو الغربيين في تعريفهم للمصطلحين السابقين ، فأحيانا نجد مفهوم الثنائية اللغوية يأخذ مفهوم الازدواجية اللغوية، والعكس صحيح.

2- لا يوجد إجماع على مفهوم أو تصوّر واحد لفكرة الازدواج أو الثنائي في اللسان، فهناك من يرفض فكرة الازدواج على مستوى اللغة الواحدة ، ويعتبرها في لسانين مختلفين، في حين هناك من ذهب إلى عكس ذلك ، بمعنى أنّ الازدواج يكون على مستوى اللغة الواحدة ، والاختلاف يكون في الدرجة ، أي بين ما هو فصيح وعامي ، أو ما هو رسمي وغير رسمي.

3- الاختلاف في أسباب وجود الازدواج أو الثنائية في اللسان، حيث كثيرا ما تقدّم تفسيرات مبطنّة بإيديولوجيات وحسابات سياسية ، بعيدا عن الطرح العلمي الموضوعي.

4- الاختلاف في تقدير الضرر والنفع الناجمين عن وجود ظاهرة الازدواج والثنائية في اللسان ، حيث بالغ بعضهم في تصوير الضرر ، ممّا أدى إلى الإحجام عن دراسة تلك المشكلة اللسانية دراسة علمية تقدّم الحلول المناسبة والضرورية، في حين رأى بعضهم الآخر أنّ تلك المسألة من باب التنوع والثراء الثقافي للألسنة ، ووجب قبولها وعدم رفضها في المجتمعات ، وراح يدعو إليها ويعززها من خلال إنشاء أكاديميات تهتم بقضايا تطوير لغة معيّنة.

5- عدم اعتراف بعض الباحثين بخصوصية المجتمعات العربية ، أو بالأحرى تقديم أحكام مسبقة وقبلية على اللسان العربي ، أثناء تطبيق مناهج غربية تقرّها اللسانيات الحديثة ، وذلك ما أدى إلى مزلق علمية كثيرة أثّرت على المدى القريب أو البعيد في هوية المجتمعات.

6- اختلاف المصطلح الأجنبي المقابل لمصطلحي ازدواجية لغوية وثنائية لغوية لدى الدارسين ، ففي بعض المؤلفات نجد ازدواجية لغوية يقابها مصطلح diglossie أو diglossia ، ومصطلح ثنائية لغوية يقابله bilinguisme ، وأحيانا أخرى يقابل مصطلح ازدواجية لغوية (لسانية) bilinguisme ، في حين مصطلح ثنائية لغوية (لسانية) يقابله diglossie أو diglossia .

7- اختلاف السلطة السياسية في التعامل مع قضايا السياسات اللغوية والتخطيط اللغوي والأمن اللغوي ، فقد تنتصر السلطة السياسية للغة أقلية معيّنة ، وتفرضها على الجماعة ، أو العكس، وقد تنتصر للغة دون أخرى - خاصة في حالة التعدّد اللغوي- لأسباب تراها تخدمها في تنظيم علاقاتها بالدول الأخرى.

8- لا يمكن فصل مصطلحي " ازدواجية لغوية ، ثنائية لغوية" عن مصطلحين أوسع مجالا ، وهما :
السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي. ومن دون شكّ، فإنّ هذين الأخيرين يعدّان مفهوميين حديثين ولا
يغطيان الممارسات اللغوية القديمة إلا جزئيا.¹

9- تأخّر اهتمام اللسانيات بدراسة علاقة اللغة بالمجتمع ، ولعلّ المنهج المسيطر بفعل رؤية فردنان دي
سوسر وأتباعه ، من خلال دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، أدّى إلى تهميش البحث في تفاعلية تلك العلاقة
، إذ لا يمكن أن نتصوّر لغة دون مجتمع ، أو مجتمعا دون لغة.

1- ينظر : لويس جان كالفي : السياسات اللغوية ، ترجمة : محمد يحياتن ، ط(01)، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، 2009 م،